القصة القصيرة في الجزائر

أ.د. عباس بن يحيى

انبثاق القصة القصيرة في الجزائر:

1- لقد كتب ***امحمد بن رحال*** (1855-1928): أول قصة قصيرة بل أول عمل أدبي بالفرنسية عنوانه: انتقام الشيخ «*La vengeance du cheikh*» 1891. وقد ظهرت هذه القصة بالفرنسية في المجلة الجزائرية والتونسية بالفرنسية (أدب وفن عدد 13) من: 9/26 /إلى1891/10/30. وعكس السائد عن كونها قصة قصيرة (*Abdellali merdaci, p: 80, et Ferenc Hardim: Discours idéologique et quête identitaire.. p:10*) فإن بعض النقاد مثل (*Jean déjeux, p: 68*) يعتبرونها أقرب أن تكون (حكاية *Un conte*) منها أن تكون قصة قصيرة. لكن عدم توفر هذا النص لدينا الآن يجعل دراسته وتقييم مساهمته صعبة. ومهما يكن فإنه لم يسجل تأثير واضح لهذا النص في كتابة القصة القصة القصيرة بالجزائر سواء بالفرنسية أو بالعربية، رغم أنه يبقى أول نص أدبي يكتبه الجزائريون بالفرنسية.

2- يشير (عمر بن قينة) في مسألة بداية القصة القصيرة إلى سنة 1908 مع مقامة ***امحمد بن عبد الرحمن الديسي*** (1854–1921) *عنوانها*: *المناظرة بين العلم والجهل*، وقد نشرت حديثا ضمن المفاخرات والمناظرات لمحمد حسان الطيان سنة 2000، ونشرها مستقلة مع شرحها للديسي نفسه (بذل الكرامة لقراء المقامة) عبد الكريم قذيفة سنة 2009. وقد لخص ملفوف صالح الدين تقييم هذه المقامة من ناحية طبيعتها الأدبية بقوله: " إن منطوق عنوان هذه القصة يدل على الجدل الذي تصور الكاتب حدوثه بين العلم والجهل، فهيَّأ لذلك شخصيتين قصصيتين، إحداهما تنطق بلسان العلم والأخرى بلسان الجهل، وألحق بهما شخصية ثالثة تنطق بلسان العدل وتكون حكما في هذا الجدال. وقد جاءت عناصر هذه الحكاية والمقالة القصصية الاجتماعية، والمقامة الأدبية، مع بروز واضح لسمات هذه الأخيرة على حساب الأشكال الأخرى" (*ملفوف صالح الدين: بيبليوغرافيا القصة الجزائرية القصيرة (النشأة والتطور). مجلة الأثر جامعة ورقلة، عدد 7 ماي 2008، ص: 158*). ومن الواضح أن عنصر الحكي في نص هذه المقامة (كما سماها المؤلف ص: 30 وفي عنوان شرحه لها كما سبق) مفقود بل تنحصر – كما أسلف الباحث– في جدال بين طرفين وتدخل ثالث ليفصل بينهما، ولهذا سماها المؤلف أيضا "مناظرة وجدال" (ص: 17 والعنوان على الغلاف)؛ أنه من الناحية الأجناسية والنوعية كان يدرك قيامه بعملية تهجين لنوع المقامة.

لقد لاحظ عبد الله إبراهيم أن "عددا لا بأس به من المقامات العربية .. تحول إلى أخبار وصفية، تفتقر إلى خواص السرد القصصي" (السردية العربية بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العرب، ص: 187) ومنها

مقامات ابن ناقيا والزمخشري وابن الجوزي وغيرهم. وضمن هذا الخط سندرج عمل الديسي إذ تخلى في مقامته عن الحكي ليقدمها في صورة حوار بسيط حيث لا حدث ولا سرد .. وتلخصت مقامته في مناظرة تهذيبية إصلاحية، وهو نفسه يقول: " **والغرض** من تلفيق هذه الكلم ونظمها في سمط الحكم – والله أعلم بالنيات– **إيقاظ الوزائم وتحريك الهمم**" (ص: 30). من هنا فإن عمل الديسي لم يلتزم بالسردية المعروفة في المقامات والتي شكلت الخط الأصيل لها، بل انحرف إلى تحويلها مثل الزمخشري وابن الجوزي ليجعل منها (مجلسا) في الوعظ والتربية وفق بنية حجاجية عقلية، وإن كان قد قدمه في صورة حوار. بعبارة أخرى ***فإن مقامته تخلو من عناصر السرد التي تؤهلها لتكون قصة قصيرة*** رغم توفر مقامات قديمة وحديثة على العنصر السردي، وهو ما جعل عبد الله الركيبي يخرج عمله من المقامات والقصص ويصنفه ضمن المناظرات (تطور النثر الجزائري الحديث، ص: 112).

إن المناظرة تقوم على المشاركة (على وزن: المفاعلة) أي التشارك في الفاعلية والمفعولية، أي أن الطرفين يشتركان في تقديم وجهة نظر خاصة، ويقوم الراوي هنا بالمقابلة بينهما، لا باعتبارهما حدثين سرديين أو شخصيتين بل باعتبارهما وجهتي نظر عقليتين أو موقفين في الحياة (المقابلة بين العلم والجهل) (المقابلة بين الموت والحياة). فهو يوضح أن هدفه من النص هو " **إيقاظ الوزائم وتحريك الهمم**"، مما ينزله داخل الخط الاصلاحي الذي يتخذ من خطاب العلم والحث عليه بؤرة تتأسس عليه استراتيجية نهضوية وإصلاحية كاملة. ولهذا تبدأ (المقامة/المناظرة) بعبارة: " فقد اقتضى الحال أن ..." وهي جملة تعادل (إن الواجب يقتضي أن نتحدث عن العلم والجهل عن طريق تخيل مناظرة بينهما) وليست هذه الجملة مما اعتدناه من الصيغ السردية المعروفة في المقامات وغيرها (حدث أن..) أو (يحكى أن ..).. من هنا فإن السارد لا يقدم موضوعا سرديا (حكاية) ولا يقود شخصيات إلى مصائرها، بل يقود نقاشا وحجاجا عقليا خالصا، من الخارج بوصفه عليما بما يجول في خاطر كل منهما. وهو يستمر في طريقته في عرض (الحدث / النقاش) باستدعاء طرف ثالث يمثل العدل أو الطرف المحايد الحكيم الذي ينقل وجهة نظر تستهدف إنهاء النقاش وفض النزاع، وإن كان يعبر في النهاية عن وجهة نظر الراوي.

3- إن الباحث يستنتج من أعمال عدد من الباحثين حول القصة الجزائرية القصيرة بالعربية أنها ***نشأت بفعل تأثير الصحافة؛*** *"وقد وجدت القصة القصيرة منفذا ومتنفسا لها في صحافة جمعية العلماء"* (*بامية، 301*) ***أي من رحم الحركة الاصلاحية*** بعد الحرب العالمية الأولى في أواخر العقد الثاني أو الثالث من القرن العشرين؛ أي سنة 1925 (وهو نفس التاريخ الذي نشر فيه محمود تيمور مجموعاته القصصية الأولى: الشيخ جمعة– العم

متولي)، وذلك ***بقصة محمد السعيد الزاهري (1899-1956): فرانسوا والرشيد***، التي نشرت في جريدة "الجزائر" سنة 1925 (في نظر عبد الملك مرتاض ومحمد ناصر). وهي بالفعل لافتة للانتباه كونها تتضمن شخصيات ومكونا زمنيا وبؤرة تتضمن رؤية الكاتب إلى قضية الاندماج في الهوية الفرنسية وإمكانيته من عدمها.

ينبغي أن نسجل أولا أن الاهتمام بها في وقتها كان كبيرا، وتحول بطلها (الرشيد) إلى شخصية معروفة عند النخب، مما يدل على إقبال القراء على الفن القصصي ونجاح الكاتب أيضا في محاولته ولو نسبيا. وهو الأمر الذي دفع بجريدة (المنتقد) البادیسية إلى تنظيم مسابقة في رثاء الرشيد (بطل القصة) (*المنتقد20 أوت 1925 عدد 08 ص:3*)، وكانت الاستجابة من عدد من الشعراء (*أخو الرشيد شاعر من بسكرة، عدد 18 بتاريخ 29 أكتوبر 1925*) و(*الجنيدي*) و(*محمد العيد آل خليفة، كلاهما في العدد 17 بتاريخ 23 أكتوبر 1925*). بل إن ابن باديس نفسه نوه بالكتابة القصصية للزاهري فقال عن كتاباته:" .. *فأبان من الحقائق وأقام من الحجج ما لا يلقاه أشد الخصوم – إذا أنصف- إلا بالإكبار والتسليم وساق ذلك كله* ***في أسلوب من البلاغة الشبيه بالروائي، سهل جذاب لا تستطيع إذا تناولت أوله أن تتركه قبل أن تأتي على آخره***" (*الشهاب*). فتلقي قصة الزاهري يستجيب لقاعدة القصة القصيرة من حيث مدة قراءتها ووحدة أثرها.

يبدأ الزاهري قصته بقوله: " *ولد فرانسوا والرّشيد في أسبوع واحد من عائلتين تسكنان بحارة واحدة. وكان الأول إسبانيّاً في الأصل قد تجنّس أبواه بجنس الفرنسيّين، وكان الثاني جزائريّ الأصل والفصل ولم يزل أبواه مؤمنين. وُلدا معاً بأسبوع، وتربّيا جميعاً يلعبان ألاعيب واحدة، ثم أرسلا معا إلى دار تربية الصّبية فكانا تربيهما أم واحدة تناغيهما مناغاة واحدة. ولما بلغا سنّ التّعليم أجبر فرانسوا على أن يتعلّم؛ فلم يستطع أليُفه الرّشيد أن يفارق أخاه.. فأرسلا به إلى مكتب فرانسوا قرينه من يوم درج، وقرينه من يوم خُلق. نشأ هذان الصاحبان هذه النّشأة جميعاً في حِجْر واحد. وإنّها لغلوة أولى تجاوزاها من غلوات حياتهما وهما لا يشعران بشيء من شؤون الحياة. دخلا في الغلوة الثانية من غلوات العمر يقطعانها قَدماً لقَدم، ورِجْلا لرجل؛ لا يعرفان شيئاً غيَر لذة الْمُصافاة والمنادمة على دروسهما يراجعانِها جميعا*" .. وهكذا راحا ينكبان على الدراسة بنتائج متطابقة، حتى " *تخرّجا في الحربّية برتبة واحدة. وقد تعلّما من سائر المعاهد التي انتقلا فيها أن فرنسا دولة المساواة، ودولة الحرّية، ودولة العدالة؛ لا ترى فارقاً بين الفرنسويّ الصّميم، وبين المتفرنس؛ ولا بينهما وبين من تحوطه رعايتها تعطي الحرّية لكلّ شخص، ومن تظلّلهم بجناحها؛ سواسية عندها في المعاملة بحيث تحكم بين النّاس بالقسط، وتعدل بينهم في الحكومة؛ وأنّ المجازاة والمكافأة تكونان على حسب ما يؤتاه الإنسان من موهبة طبيعيّة؛ وأنّ التّرقّي في الوضائف إنّما يكون بحسب الأعمال؛ وأنّ فرنسا تخفظ جناح الذلّ من الرّحمة لكلّ من جاهد في سبيلها ""*.

وبالطبع انتهى بهما الأمر إلى التجنيد، وهنا بدأ يظهر التمييز والفرق بينهما في الطاعم والراتب وبدأ الرشيد يتساءل: *أين هي المساواة التي تعلمناها وامتلأت بها كتب التعليم الجمهوري؟* وحاول إقناع نفسه أن تفوق فرانسوا عليه يعود إلى ميزة فيه يفتقر هو إليها و" *مشت الأيام واللّيالي عليهما وفرانسوا كذلك يتسامى في الرّتب، رتبة رتبة، والرّشيد قاعدٌ مكانه لا يعلوه ولو قيد أظفور حتّى ارتقى فرانسوا إلى وظيفة سامية: وضيفة كولونيل جنرال قائد عام؛ فأصبح صاحب الأمر والنّهي في الجيش الذي يضمّ الرّشيد بين جناحيه وهو ما زال مطلق جندي*". وهنا ""*تأثر تأثراً عميقاً لهذا الظّلم، ولهذا*

الميز العنصريّ الذي تعرّض له ممّا « جعل الوهن يتمشّى في عظام الرّشيد، والهزال يمتصّ من دمه، ويأكل من لحمه »؛ فهّم بأن يعلن « ثورة يعبّر بها عن سخطه وغضبه، ولكنّه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً »؛ فربما قيل له : "إنّما أنت مشوّش، وعدوّ الحكومة ! فلم يجد بدّاً من كظْم ما يجده. فلم يزل يُضنيه الكظم ويعنّيه، فلم يبق إلاّ خيالاً ماثلاً. ***ثم في يوم من الأيام أصبح جثة هامدة لا حراك بها****". وذلك « بعد أن هاله ما رآه من تفوق صاحبه عليه ؛ وبان له بأنّ الجزائريّ المسلم لا يساوي جناح بعوضة، ولو فعل ما فعل من الأعمال الجليلة؛ وعرف أنّ كلّ ما كان يقرؤه من أنّ فرنسا دولة المساواة ألفاظ ليست لها مسمّيات في الخارج ».* وبموته تنتهي القصة.

فمضمون القصة هو:

(الرشيد) جزائري والثاني (فرانسوا)إسباني متجنس.

ولدا ونشآ معا وتربيا نفس التربية وحصلا على نفس التعليم وعاشا نفس الظروف واتجها إلى الجيش معا.

لم يحصل الرشيد على أي اعتراف أو تقدير فيما حصل فرانسوا على المراتب العليا والحياة الجيدة.

ويبدو أن الزاهري قد كتب القصة بهدف محاربة فكرة الاندماج بين الجزائريين وفرنسا، وكشف استحالته من جهة، وإبراز نفاق الاستعمار الفرنسي فيما يدعيه ويروج له من وعود ومباديء (المساواة..) لا يطبقها إلا على ذويه من الفرنسيين أو الأوروبيين من جهة أخرى؛ ولهذا اعتبره عبد المالك مرتاض "أول نص مقاوم" أو " مشروعَ مقاومة مبكّر من أجل الاستقلال عن فرنسا" *CRASC*.

يبدو الزمن في القصة أهم عنصر وأوضحه، ويمكن أن نسجل ملاحظات حول بنيته:

– زمن السرد مطابق تماما لزمن القصة فهو زمن تاريخي (تتابع كرونولوجي منطقي للأحداث) يستمر في خطيته من ميلاد الشخصيتين إلى النهاية التي حددها الراوي (موت الرشيد).

– ومن هنا فإن زمن القصة والسرد طويل (نحو خمسة وعشرين عاما)، وهو حيز زمني مختلف تماما عن المتعارف عليه في القصة القصيرة، بل إنه يناسب الرواية.

– لا يستعمل الراوي أية تقنيات سردية مختلفة فيما يتعلق بالزمن بل يمضي مثل مؤرخ لسيرة أو ترجمة. رغم وجود مؤشرات على تبئير لبعض المقاطع الزمنية (**مثل**: *ولد فرانسوا والرّشيد في أسبوع واحد*) والاشارة إلى ولادتهما في أسبوع واحد هو جزء من استراتيجية الكاتب في تأكيد تطابق نشأتهما ودراستهما وحياتهما في المرحلة الأولى، ومحاولة نفي أي اختلاف أو تمايز بينهما. كما نلاحظ اعتماد تسريع السرد عن طريق الحذف نظرا للحيز الزماني الكبير، ونظرا لعدم أهمية بعض المقاطع الزمنية في القصة في نظر المؤلف (*مشت الأيام واللّيالي عليهما*). فالفترة التي يشير إليها طويلة لكنه يريد أن يفسح للقاريء في ملء الفجوة بعد أن قام بتأطير أفقه؛ أي سمح للقاريء أن يستنتج رتابة الفترة وخلوها من أحداث فارقة والأهم من ذلك تطابق حياة الشخصيتين خلالها.

– ولهذا فإن الشخصيات في القصة ثابتة لا تتحرك وإنما يقودها الراوي عن طريق الوصف المسرود منجزا صورة عن حياتها دون أن تشارك هي في الفعل (لا تتحرك ولا تتكلم) فهما في موقع المبني للمجهول أو في موقع المفعولية، ويمكن أن نميز في القصة شخصيتين من هذا النوع:

الرشيد: وقد شكله الكاتب من مختلف العناصر التي تجعله ممثلا للانسان الجزائري المحتل لكنه إيجابي يعمل على التقدم في حياته إيمانا بما تربى عليه من شعارات، وهو جزائري أصيل (أي ابن الأرض وصاحبها) واسمه (الرشيد) مرتبط بالرشد والصواب.

فرانسوا: ويقع في الطرف المقابل لشخصية الرشيد لكن الكاتب يجعلهما متطابقان من حيث النشأة والدراسة وظروفهما في البداية، لكنه مختلف عنه تماما من حيث أصله ومن حيث المصير النهائي. فهو ليس بجزائري أصيل لكنه ليس بالفرنسي الأصيل أيضا، بل هو إسباني متجنس وهذه مشكلة أخرى إذ يسمح للأوروبيين المعمرين وحتى لليهود بالتجنس والحصول على كامل الحقوق عكس الجزائريين. ولهذا فإن اسمه (فرانسوا) رمز على كونه فرنسيا آخر. لكنه أيضا شخصية غامضة لا تظهر ولا تتكلم بل ينحصر دورها في تحقيق صورة التناقض في تعامل المستعمر.

يقول عبد الملك مرتاض: *"إنّ الاقتصار على شخصيّتين اثنتين فقط، والتّعامل معهما خارج مسرح الأحداث أفقر هذا العمل السّرديّ وجعله خالياً من الصّراع ؛ على الرّغم من وجود بوادر هذا الصّراع الذي قامت عليه القصّة في أصلها ؛ إلاّ أنّ القاصّ فاته تحريك هاتين الشّخصيّتين حين دخلتا الحياة العمليّة"* CRASC.

لكن توجد شخصية ثالثة مختلفة قليلا، وهي فرنسا. وتظهر شخصية فاعلة يسند إليها الراوي مختلف الأفعال والأحداث الأساسية، فهي *" تخفظ جناح الذلّ من الرّحمة لكلّ من جاهد في سبيلها"* وهي التي تربي وتعلم وتوظف وترقي في المراتب. وهي الشخصية التي تشغل بال البطل (الرشيد) بسبب تناقض خطابها وفعلها مما يجعل هذا التناقض هو جوهر القصة وبؤرتها، والصراع الداخلي الذي يعيشه الرشيد ويحسمه عن طريق الموت، أو الانتحار البطيء، أو أنه *" أن يستشهد على طريقته الخاصّة، من أجل الوطن، بعد أن ضعفت قوته، وقلّت حيلتُه... لقد أزمع على أن يستشهد بالحزن على مصير الوطن، وما كابد من ظلم الاِستعمار الفرنسيّ الغاصب. فكان له ذلك"* كما يقول عبد الملك مرتاض.

وترى مليكة فريحي أنها قامت بوظيفتين في حالتين: حالة الثبات: وشملت وضع الثقة بمبادئ الإدارة الفرنسية (الاندماج– مباديء الثورة الفرنسية) وهو هنا سيميا نموذج للفتى الساذج الواثق في فرنسا وادعاءاتها، ثم حالة التحول: وفيها يكتشف حقيقة قضية الاندماج. فيتحول إلى الهموم والخيبة والصراع.

أما العوامل عند غريماس فتنتظم في أزواج ثلاثة: (المرسل/المرسل إليه)؛ (الذات/الموضوع)؛ (المساعد/المعيق)، أي:

مرسل (الرشيد) ⟵ موضوع (الانبهار) ⟵ مرسل إليه (فرنسا)

مساعد (التجنيد) ⟵ ذات (الرشيد) ⟵ معيق (اكتشاف الحقيقة)

وهي ترى أن كل زوج هنا يتكون من عاملين يربط بينهما محور دلالي معين؛ وهي إذن ثلاثة محاور دلالية؛ وهي: محور الرغبة: الذات/الموضوع (رغبة البطل في العيش – المستحق– مع الاستعمار)؛ ومحور الإبلاغ: المرسل/المرسل إليه (تجند البطل)؛ ومحور الصراع: المساعد/المعيق (هل سيتم تحقيق التواصل بين الرغبة وموضوع القيمة؟).

هنا يتعارض عاملان: أحدهما يدعى المساعد والأخر المعارض. الأول يقف إلى جانب الذات والثاني يعمل دائما على عرقلة جهودها من أجل الحصول على الموضوع. (*مليكة فريحي: المقاومة في الأدب الجزائري أثناء الاستعمار الفرنسي ج2– مجلة عود الند: على الأنترنيت*).

ومما سبق ندرك أن القصة لا تتضمن حدثا يحرك أحداث القصة؛ بل إنه كل حياة البطل الواقعية والذهنية، أي تاريخ واقعي وفكري للبطل. وهو فكر يتغير بتغير واقعه وواقع الشخصية المقابلة له (فرانسوا) لكنه خال من أي صراع مع الشخصية المقابلة لأنها ليست متضادة بل متوازية، مما يجعل الصراع ذاتيا وداخليا يقوم على مرارة الخيبة مما اكتشفه.

نستنتج في النهاية أن قصة (فرانسوا والرشيد) للزاهري عدة ملاحظات:

– هي محاولة جادة مارس صاحبها كتابة القصص بمفهومه هو للفن القصصي.

– تهتم بالفكرة أكثر من اهتمامها بالجانب السردي مما يجعل روح المقالة ماثلا فيها.

– طبقا لقواعد القصة القصيرة، فإن الحيز الزمني الطويل وغياب الحدث والحوار وعدم تحليل الشخصيات نقاط ضعفها الأبرز.

– أثرت المحاولة في الجمهور و أسهمت – دون شك– في الترويج للفن القصصي وفي التأسيس له في الجزائر.

– استمر الزاهري في كتابة القصص، وقد نشر بعضها في مجلة (الفتح) ثم في كتابه (الاسلام بحاجة إلى دعاية وتبشير) سنة 1929، ومنها: قصص"عائشة"، و"الكتاب الممزق"، و"صديقي عمار"، و"أحد منتزهات وهران".

4- أو من خلال **<u>قصة محمد بن أبي بكر السلاوي: *دمعة على البؤساء*" المنشورة في "الشهاب" سنة 1926</u>** . وذلك في نظر عايدة بامية. وهي تقول حين عرضت رأيها: "وأول قصة قصيرة هي (***دمعة على البؤساء***) كتبها علي بكر السلامي، **ولهجتها تتماثل مع لهجة الاصلاحيين، حين تهاجم الطرقية** وتتهمهم باستغلال الشعب لمآربهم الذاتية" (عايدة بامية، ص: 306). والقصة المذكورة نشرت في مجلة الشهاب، (عدد 63 سنة 1926 ص:9)، لكنها موقعة باسم: محمد بن أبي بكر السلاوي. ونلاحظ أن هذا الشخص يوقّع مقالا له في العدد 70 لسنة 1927 ص: 15 بعبارة (من فاس: محمد بن أبي بكر السلاوي الفاسي).

ومحاولة السلاوي تندرج ضمن نوع من المقال القصصي (*طبقا لمصطلح عبد الله الركيبي*)، وهي أشبه بالمزج بين نوعين من المقامات (سرد ضعيف ووعظ) . فالكاتب بعد أن ينام مهموما ضيق البال، يرى صديقا له يحدثه عن حاله، وكيف كان ثريا لما ورثه من أموال طائله عن أبيه، لكنه أضاع كل ماله وهو دون الثلاثين لوقوعه في حبال شيوخ الطرقية وهنا يستمر النص على طوله في لوم الكاتب لصديقه حتى يستيقظ مذعورا.

فعلا إن النص يشبه المقال من حيث تحديد الفكرة والهدف؛ الهجوم على الطرقية وفضح ممارساتها. والأهم من ذلك تسويد صورتها عند الناس وإبراز خطرها عليهم اجتماعيا وليس عقائديا. والاستراتيجية التي تبناها الكاتب محورة قليلا عن المقال؛ وإن ظلت بروحه وصياغته. فهو يضع نقطة انطلاق سردية في حدث حالته ونومه ثم حديث صديقه الذي هو نقطة التأزم (العقدة) ويأتي الحل في الأخير ليكشف أنه مجرد حلم مخيف. يبدأها بقوله: " *البؤساء في الدنيا أجلّ من أن يحصون وأشدهم بؤسا من يشاهد الشر ينهك جسمه ولا يجد الاستطاعة لدفعه. أتى عليَّ يوم تجلت إلي فيه الهموم من كل جانب وأعوزتني الحيَل وضقت ذرعا مما حل بي فكنت أروّح النفس تارة وأطرد عنها النوم أخرى حتى أخذتني سِنة بين خيالات شاخصة وهموم قاتلة لم يزالا يتراءيا لي حتى في ذلك العالم. بينما كانت النفس تجول .. إذا بصديق من الأصدقاء الذين عرفتهم وعرفت ثروتهم يفضي إليّ بخبره ويشركني في بؤسه فرأيت واجب الصداقة يقضي علي سكب عبرات بين يديه يتأسى بها وتخفف عنه ما كاد يذهب به إلى مضجعه الأخير إن لم أشاطره مصيبته التي تسيخ لها الرواسي وتذوب لها الجمادات. أخبرني هذا الصديق أنه ممن ربيَ في النعمة كما أعرفه وأن والده ما لف في أكفانه حتى خلف له من المال ما تبقَى صبابتُه لأحفاد الأحفاد ومن نفيس المقتنيات وغيرها ما لا يأتي عليه العدّ. فلم يبلغ الثلاثين من عمره حتى انفصل عنه نقيره وقطميره، وجليله وحقيره، ولم يفضل له إلا أطماره التي يواري بها عورته وأفلاذ كبده الذين بهم يتكفف إلى الناس ويتعزى بهم عندما يذكر المصير ومستقبل الأبناء. وأن سبب ذلك هو دخوله في إحدى طوائف المتمشيخين وإعطائه العهد على السمع والطاعة للأوامر المتلقاة منهم ظنا منه أنها شبيهة بالأوامر الالهية وأن امتثالها متحتم على كل سكاني البسيطة فلم يشعر إلا وقد فقد رشده بذهاب ما ينعش به روحه وروح أبنائه وأصبح في ثيابه الخلقة وأبنائه المتصدق عليهم يلتمس ما يسد به الرمق ويدفع عنه*

كفر الجوع ". ومن الواضح أن هذه المحاولة قد تراجعت عما أحرزه الزاهري؛ إذ ابتعدت تماما عن مكونات النص السردي مهما كان نمطه أو مستواه، وتلخصت في خطبة طويلة يلقيها الكاتب على صديقه المتخيل حتى يستيقظ من نومه.

والخطاب الذهني العقلاني التقريري حوَّل النص إلى مقالة كاملة تبدأ بنتيجة عامة وتنتهي بخاتمة عقلية حكمية تتولد مع فجر اليوم الموالي: " *هذا هو اليوم الذي تظهر فيه الحقائق، وتفتح المغالق. والمعارف فيه تذاع، والأهواء تباح الأندية والبقاع. فما عليكم إلا أن تظهروا الجد تحمدون عقباه، وإياكم والكسل عن العمل، والاعتذار بالعلل، ومن عرف ما قصد، هان عليه ما فقد*". بعبارة أخرى فإن النص بني كما يلي:

المقدمة: حكمة عقلية حول كثرة البؤساء وضعف حيلتهم.

الموضوع: النوم– رؤيا حديث صديقه– رد فعله وخطابه الطويل حول شيوخ الطرقية.

خاتمة: تضمنت نتيجة عدم الاستسلام والعمل بجد.

ويمكن أن تصور هيكل القصة كلها كما يلي:

المقدمة: ← قبل السرد

القصة: ← نقطة الانطلاق (1) نوم الكاتب مهموما

حالة (1) نقطة الانطلاق: ثراء صديقه

حالة (2) تغير وضعية صديقه من الثراء إلى الفقر

سبب التغير (دخول شيوخ الطرقية في القصة)

حالة (3) هجوم ولوم: الراوي يتحدث إلى صديقه (هجوم على شيوخ الطرقية)

خاتمة ← (1) الاستيقاظ عند الفجر (نهاية السرد).

(2) استنتاج ضرورة العمل.

ومنه يتضح أن الكاتب – وهو لا يبدو متخصصا في القصة– قد كتب مقالة لم يكن له خلالها أي هم يتصل بالسرد فالشخصيات تكاد تكون غير موجودة، فالصديق مجهول تماما لا نعرفه إلا من خلال الوصف المسرود الذي تلخص في إعلامنا أنه كان غنيا فافتقر بسبب شيوخ الطرقية، أما الراوي فهو نموذج الشخصية العالمة التي تكتفي فقط بالتعليق على الحدث واستثماره في منهجها الفكري والاستدلال على صحته.

ورغم أن عايدة بامية قد اعتبرتها أول قصة قصيرة فإنها لم تقف عندها طويلا وقالت: " *يتحدث الكاتب فيها بلهجة الواعظ وليس بأسلوب القصصي*". ثم انتقلت مباشرة إلى قصص الجلالي الذي اعتبرته "*رائدا في مجال القصة القصيرة* ". والحقيقة أن رأيها بقي غريبا لم يتبنه باحث آخر.